

التطور العمراني في مدينة الجزائر

(من 1830 إلى 1939)

أ.ميدان كلثوم - جامعة الجزائر 2

رقم المحور -1: مفهوم المدينة الجزائرية ، نشأتها في القديم و الحديث. الملخص:

تعتبر مدينة الجزائر من اهم المدن الجزائرية بسبب الدور الذي لعبته خلال فترات التاريخ، وكذلك لموقعها الإستراتيجي ،مدينة عريقة عرفت بجزائر بني مزغنة، إتخذها العثمانيون عاصمة للأيالة و ظلت كذلك إلى عشية الإحتلال الفرنسي عام 1830، و هو التاريخ الذي تعرضت فيه للإحتلال و التدمير الذي انتج المدينة الأوروبية. عاشت المدينة تحولات مفروضة كانت إستجابة لسياسة عمارانية تقوم على تمجيد المحتل. في بداية الأمر طغى عليها البناء العسكري و مع بداية القرن العشرين ظهرت فيها هندسة بتوجهات مشرقية و في الثلاثينيات ظهرت هندسة متوسطة إستمرت إلى غاية الإستقلال. وسط هذا العمران الجديد و الغريب على المدينة برزت ظاهرة الأحياء القصديرية و توسعت و عاشت إزدواجية متناقضة مدينة الجزائر لعبت دورا هاما حيث كانت مسرحا للحركات الإجتماعية والمعارك البطولية الخالدة أثناء الثورة التحريرية .

العناوين الفرعية للمداخلة:

- 1- التهيئة العمرانية في القرن التاسع عشر و العشرين و أثرها على المدينة.
 - 2- التفرقة الإثنية لأحياء المدينة.
 - 3- خصوصية السكن الأوروبي والجزائري.
 - 4- الأحياء القصديرية (تاريخها، مرفولوجيتها، سكانها).
- الخلاصة.

مدينة الجزائر التطور العمراني في فترة الإحتلال الفرنسي و أثره على المدينة

1939/1830:

إن دراسة تاريخ المدن لا ينفصل عن دراسة التطور البشري، إذ نلاحظ تشابها بين نشاط المدينة وتاريخ تطورها، وبين نشأة الإنسان وتطور نشاطاته. فالمدينة وجدت بوجود الإنسان الذي خططها وشيّدتها، وتدمر كذلك بفعل الإنسان. فازدهارها وتوسعها أو انكسارها وتفككها مرتبط بشكل متين بأوضاع سكانها وحياتهم. وكلما

ازدهرت مجموعة بشرية خطت مراحل هامة في تقدمها وجسدت ذلك في بناء مدن عظيمة زاخرة ومتطورة.

ويعكس تدهور تلك المدن ظاهرة تراجع المجموعات البشرية وتخلّفها وانكسارها، وقد نجد التشابه حتى فيما يتصل ببعض الخصائص النفسية من سعادة وشقاء، وازدهار وانكماش، وقوة وضعف. وهذا ما نلاحظه عند دراستنا لبعض المدن التي برزت على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية بالجزائر، ثم تراجع أمرها، وانحسر مدّها، وطمست معالمها، في طليعة هذه المدن مدينة الجزائر.

هذه المدينة الحضارية منذ القدم تعرف بجزائر بني مزغنة، أخذت بعدها الحضاري والسياسي منذ أن اتخذها العثمانيون عاصمة لهم إلى عشية الاحتلال الفرنسي 1830 في هذا التاريخ دمرت معالمها، وأثارها الإسلامية، لتكون كما أرادها المحتل. إذ تعرضت هذه المدينة العتيقة لأبشع أنواع الاحتلال الغاشم فسقطت و دخلتها الجيوش الغازية، واعتبرتها وكأنها ملكا لها فنهبوا ودمروها و استولوا على أملاك أصحابها الأصليين و أقصوهم، و خضع القليل الذي بقي بها لسلطة و تعسف الاحتلال. ثم بدأت تصدر القرارات من الجهات الرسمية الفرنسية لتجيز و تبيح الهدم، و التخريب و تهوي بذلك فضاءات تبني فيها المدينة الأوربية .

مرت مدينة الجزائر أثناء إحتلالها بمرحلتين:

_مرحلة الغزو و الإحتلال والتدمير للملاحها و معالمها، إذ هيأ المحتل الفضاءات اللازمة لبناء المدينة الأوربية على أنقاض مدينة الجزائر العتيقة.

_مرحلة القطيعة التاريخية التي عاشتها المدينة عندما اضطرت للتأقلم مع نمط غريب مسيطر ناكر، جلب معه المدنية الغربية محولا إياها ببطء و بعنف إلى مدينة جديدة تسع لوافدين جدد يختلفون عن مجتمعها الأصلي. هؤلاء حرموا الجزائريين من العيش فيها، وحصروهم في فضاءات ضيقة و مهمشة تفتقر لأبسط الشروط .

إن الهدم الذي تعرضت له المدينة لم يتوقف بل استمر و في عام 1865 عندما زار "نابليون الثالث" الجزائر، في جولة اعتبرها بعض الفرنسيين بداية لسياسة الإمبراطورية المتضمنة حماية المدينة من الهدم و مواصلة عملية البناء فيها. هذه العملية التي استمرت إلى غاية بداية القرن العشرين، حيث لوحظ تغير تدريجي للنمط العمراني الذي طغى عليه طابع البناء العسكري و الأشكال النيوكلاسيكية لصالح هندسة مشرقية كمحاولة لاحتواء الفن الإسلامي، و اعتبر الحاكم "شارل جونا" الموجه الجديد لهذه السياسة التي ستخفي بدورها مع الثلاثينيات، ليحل محلها الطابع المتوسطي(1).

فما هو المخطط العمراني الذي هيأه الإحتلال الفرنسي لبناء المدينة الأوربية؟

إن الباحث في تاريخ بناء مدينة الجزائر يجدر به أن يتطرق إلى التحولات العميقة التي عرفتها المدينة، واتي نتج عنها المدينة الاستعمارية الحديثة، فالمدينة هي التي واجهت الاحتلال في البداية وهي التي خضعت بعد سقوطها مكرهة لتغييرات مست نسيجها العمراني الأصيل، فنتج عن ذلك المدينة الأوربية التي ذابت وسطها المدينة العتيقة.

بداية التحولات مست القصبة أو المدينة القديمة، فبدأت تقتلص متحملة عمليات القضم والتهديم، فالقصبة أو المدينة كما كانت تسمى في العهد التركي، كانت تتربع على مساحة خمسين هكتارا، لكنها تقلصت بسبب الهدم إلى ثمانية عشر هكتارا فقط. هذا التقلص لم يكن عفويا لان المحتل في السنوات الأولى، وطيلة فترة احتلاله للجزائر، كان يريد إخضاع المدينة للتغييرات والأفكار الأوربية التي جاء بها، بداية بتهيئة الطرقات حتى تتمكن العربات من المرور⁽²⁾ ثم تهيئة ساحة عمومية والشروع في تغيير الهندسة واستبدالها بهندسة أوربية كما حدث في كثير من الأنهج القديمة مثل نهج الأسواق المحصور بين باب الوادي وباب عزون ونهج البحرية. تحملت مدينة الجزائر تغييرات كثيرة منذ بداية الاحتلال كان أكثرها في الناحية السفلى للقصبة، التي تعتبر أول حي لإقامة الأوروبيين⁽³⁾، فمشروع بناء المدينة الأوربية كان يستجيب لسياسة تقوم على تمجيد قوة المحتل، وإظهار تفوقه، وهذا التمجيد ظهر في الأشكال الهندسية في واجهات الشوارع وفي الهندسة بصفة عامة⁽⁴⁾.

كيف تطورت مدينة الجزائر خلال الفترة الاستعمارية؟

للإجابة على هذا السؤال يجدر بنا دراسة الميكانيزمات و الدوافع السياسية والإقتصادية و الإجتماعية التي كانت وراء تطورها. هذه الدراسة هامة وأساسية لأنها تمكننا من دراسة التطور الكرونولوجي لمدينة الجزائر وتوضيح التأثيرات التي كانت وراء ذلك.

مباشرة بعد سقوط مدينة الجزائر عام 1830 واستيلاء الاحتلال الفرنسي عليها، شرع هذا الأخير في سلسلة من عمليات الهدم، كانت البداية هي الجهة السفلى وكانت المبررات دفاعية، الشيء الذي جعل المرحلة الأولى من العمران الذي تلا الهدم يطفئ عليه طابع البناء العسكري، لأن إسكان الجيوش والإدارة العسكرية كان من الأولويات. اهتم الاحتلال كذلك ببناء ساحة كبيرة، تجمع وتوسع لفيالق الجنود، هذه الساحة التي ستكون فيما بعد ساحة الحكومة الواسعة تقطعها ممرات تسع لمرور العربات العسكرية. كان يتوسطها نصب تذكاري "لدوق أورليان" كمحاولة لتجسيد فكر استعماري تحقق بعد تدمير عدد كبير من المنازل⁽⁵⁾

كانت ساحة الحكومة تتربع على مساحة تقدر بهكتار، تطلب تدمير أربعة مائة وعشرين منزلا لتهيئتها، ولم يتوقف الهدم عند حدود الساحة، بل تعداه إلى المناطق المجاورة لباب عزون مثل مسجد السيدة، ودكاكين الدباغين، وصانعي الجلود⁽⁶⁾. خلال هذه الاهتمامات العسكرية ظهر تفكك الهيكل الاجتماعي للسكان الجزائريين، ولم يكن هذا سوى منطلق لتغيرات ستعرفها المدينة فيما بعد. كما مست التدخلات الأولى القصبية السفلى أي الجنوبية، هذه المنطقة التي كانت خلال الفترة العثمانية تجمع أهم الأنشطة ومركزا للقرار فيها مساجد وقصر الداي (الجنينة) والسوق والأحياء السكنية.

"تجدر الإشارة هنا إلى أن المدينة الاستعمارية تختلف تماما على المدينة العربية الإسلامية، فهذه الأخيرة لم تكن تحتوي على نصب تذكارية ولا شوارع عريضة⁽⁷⁾. كما أن السياسة الإستعمارية التي اعتمدت على الهدم كان لها الأثر البالغ في نفسية السكان الأصليين الجزائريين، هذا الأثر سيلازمهم طيلة وجود المحتل الذي لم يتراجع في الاستيلاء على أملاك الغائبين، الذين اعتبرهم في تعداد المفقودين. حيث أصدر عام 1837 قرارا ينص على مصادرة أملاكهم بعد أن استولى من قبل أي في 1832 على ثمانية مساجد وأربع عشرة ثكنة ومائة وثلاثين منزلا والعديد من المحلات وحول بعض العمارات إلى مستشفيات دون أن ننسى ما جرى في الأحياء الأخرى وقصر والداي واصطبلاته وقلاعه⁽⁸⁾.

كانت هذه أولى عمليات الهدم التي فسحت المجال لفرغ كبير فيما بعد، فتحوّلت كثير من العمارات إلى مصالح إدارية ودينية، نفس الشيء عرفته المساجد والمقابر فماذا حدث لهذه المعالم الدينية وكيف تحولت عن مهامها الأصلية إلى مصالح استعمارية مدنسة؟

بعد عمليات الهدم والتحويل للمساجد إلى كتدرائيات، شرع الاحتلال في بناء مجموعة من الكنائس في مدينة الجزائر، هذه الكنائس كان معظمها في الأصل مساجد وأخرى بنيت مثل معبد القديس سانت أوغستين في نهج قسنطينة عام 1878، كنيسة القديس "سانت بول" بباب الوادي، وأخرى بنيت بالحامة ومصطفى⁽⁹⁾.

كما كان سكان المدينة يملكون مقابر عديدة، فالمقابر الخاصة بالأتراك كانت تتواجد في أعالي باب عزون، بعد الاحتلال استولى عليها الفرنسيون وتحولت إلى مستودعات لتخزين الخشب. السكان الجزائريون كانوا بدورهم يملكون مقابر يدفنون فيها موتاهم في أعالي باب عزون، وكانت العائلات الغنية تملك مقابر عائلية

داخل القصبة في نهج يسمى نهج نفيسة، استولى عليها الاحتلال كما استولى على المساحات التي كانت تحيط بالمقابر فباعها و حولها لأغراض تجارية⁽¹⁰⁾. و كان الأوربيون يأتون إلى المقابر للاستيلاء على مواد البناء مثل الآجر و الرخام و الأردواز فيقتلعونها و يتلفون ما تبقى، باستثناء مقابر اليهود التي سلمت من النهب والتخريب⁽¹¹⁾. و هذه كلها عينات على ما اقترفه الاحتلال في حق المدينة و سكانها.

1- التهيئة العمرانية في القرن التاسع عشر والعشرين وأثرها على المدينة:

كان العمران الذي بناه الاحتلال في القرن التاسع عشر، يعكس بصورة واضحة منطقته المتمثل في البناء على حساب الهدم، فمدينة الجزائر كانت تمثل بالنسبة له ضرورة وقاعدة أمنية للتوسع في كامل البلاد، لذا كان ينظر إلى أولى عمليات الهدم من زاوية الأولويات مثل ساحة الحكومة التي توحى للنظر من الوهلة الأولى أنها قامت على أنقاض هدم كبير⁽¹²⁾.

ثم بدأت المدينة تتوسع جنوبا نحو أحياء البحرية وشارع باب عزون، حيث بدأ النشاط التجاري يظهر، علما أن حي البحرية هو أولى الأحياء الأوربية في المدينة وأقدمها، هذا الحي القديم الموازي لساحة الحكومة كان قلب المدينة الأوربية في العشرية الأولى التي تلت الاحتلال. وعندما بدأ يزداد العمران في المدينة بدأ بعض الأوربيون يغادرونه إلى أحياء جديدة، فسكنه بعض الجزائريين الذين عادوا إلى المدينة بعد أن فروا منها مع الاحتلال في 1830. هؤلاء الجزائريون استقروا إلى جانب حي البحرية، في الجهة الشمالية الغربية للقصبة⁽¹³⁾، كما سكنه فقراء هاجروا من إيطاليا و لم يتمكنوا من السكن داخل المدينة الحديثة. و في نهاية القرن التاسع عشر، هدم جزء منه بنيت مكانه الخزانة العامة، و طريق الثامن من نوفمبر والإدارات، كما سمح مخطط جديد بتوسيع المدينة من الجهة الشرقية فظهر تبعا لذلك أحياء مثل حي إيزلي و شارع قسنطينة و قصر العدالة والمكتبة وقصر الحكومة⁽¹⁴⁾. أما قرب باب عزون فقد ظهرت مجمعات صناعية جلبت إليها المستثمرين علما أن هذه المنطقة كانت ذات أهمية عسكرية و اقتصادية بحكم قربها من الميناء. في الجهة الغربية من المدينة ظهر حي باب الوادي بمجمعات سكنية ومعامل صغيرة، فيما بعد تحول إلى أكثر الأحياء اكتظاظا بالسكان⁽¹⁵⁾.

وتعتبر فترة القرن التاسع عشر، فترة تطورت فيها المدينة بصورة بطيئة و و خلالها اختفى تدريجيا الطابع العمراني الأصلي، ليحل محله الطابع الأوروبي الذي خلف أضرارا بالنسيج العمراني⁽¹⁶⁾، و أحدث تغييرات كبيرة. كما اختفت منازل كثيرة

ولوحظ أن منزلا من كل ثلاثة منازل أصلية، تغيرت هندسته ومساحته وحتى سكانه ويرجع ذلك زيادة على ما ذكر سابقا إلى زيادة الوافدين على المدينة⁽¹⁷⁾.

مع بداية القرن العشرين، و بعد أن قضت فرنسا على معظم المقاومات اعتبر الإستعمار أن مرحلة الحملة العسكرية قد انتهت، وأن عليه الاهتمام أكثر بتوفير حاجيات السكان الأوربيين. فبدأت الإدارة الجديدة المدنية تخطط لتحويل بعض المصالح الإدارية والتجارية والثقافية نحو المدينة الأوروبية الجديدة، أي شرقا بعيدا عن ساحة الحكومة⁽¹⁸⁾. و اعتبر هذه الفترة إلى غاية 1939، فترة تغيرات ملحوظة عرفتها المدينة، فكان الابتكار والتجديد والإبداع تكفلت به المصالح العامة، لأن هذه الفترة هي فترة تحضير للاحتفالات المئوية، فظهرت تهيئة عمرانية جديدة مثلت القطيعة مع ما كان موجودا في القرن التاسع عشر، إذ كانت الرغبة تتمثل في ترك بصمات المحتل على كل ما أنجز، ومن الأمثلة على ذلك تهيئة أحياء جديدة في المساحات التي تنازلت عنها السلطة العسكرية للسلطة المدنية مثلما هو الأمر لساحة العمال⁽¹⁹⁾، وربط الصناعة بالميناء عبر شبكة من الطرقات، وإعادة بناء حي البحرية القديم الذي يعد أول حي بني بعد الاحتلال، نفس الشيء بالنسبة لحي باب الوادي⁽²⁰⁾ و شملت هذه التهيئة هندسة بتوجهات مشرقية ظهرت في مجموعة من العمارات مثل مقر الولاية و البريد المركزي و معهد الفنون الجميلة⁽²¹⁾.

كانت مراحل بناء مدينة الجزائر في بداية القرن العشرين تستجيب لمتطلبات السلطة الاستعمارية، ففي المرحلة التي يسميها الاستعمار بمرحلة الانتصار أي بين 1920 و 1930، همش السكان الأصليون وكانت الفكرة السائدة تتمثل في إقصائهم من المشاريع السكنية، فركنوا في ضواحي المدينة وعند تلالها، وفي أحياء قصديرية بدأت تظهر في هذه الفترة⁽²²⁾، فترة ظهرت فيها أحياء فخمة لطبقة معينة من البورجوازية الأوروبية، مثل حي ميشلي ومرتفعات تيلملي و مصطفى (حيدرة حاليا) لأن المدينة في نظر المحتل بنيت لطبقة معينة و الدليل على ذلك هو أن سكانها الأصليين تكدسوا في المدينة القديمة أي القصبة في حين سكنت الطبقة المتوسطة من العمال الأوربيين حي البحرية، و باب الوادي لتوفر الورشات الصغيرة والمعامل⁽²³⁾.

لكن وضع المدينة سيتغير في هذه الفترة من حيث التركيبة السكانية فسكانها الذين ظلوا إلى غاية 1926 يتكونون من أغلبية أوروبية، سيصبحون أقل عدد بسبب زيادة عدد الجزائريين الذي تزايدوا فيها و بدأوا يؤثرون على هياكلها، و بدأت الأحياء القصديرية تظهر بها، و تعجز فضاءاتها على استيعابهم⁽²⁴⁾. وحتى التخطيط في هذه

الفترة تأثر بمدرسة جديدة، جمعت بين العصرية و الإبداع من جهة، و الرداءة من جهة أخرى، عندما ستنشر سلطات الاحتلال في بناء سكنات إجتماعية للجزائريين تختلف تماما عن سكنات الأوروبيين ذلك أن سياسة التفرقة الإثنية هي التي كانت تسيروها .

هذه التفرقة ظهرت في الأحياء، فالأوروبيون كانوا يسكنون قلب المدينة حيث الأحياء الراقية و المرافق و النشاطات الحيوية، أي يسكنون في مركز ثقل المدينة. أما الأحياء الجزائرية، أو بالأحرى المجمعات فلقد كانت تشكل حزاما حول المدينة، فمن الشمال كانت القصبة العليا، و ما تبقى من العمران التركي و من الجنوب كانت القصبة السفلى، و في جانبي المدينة شرقا و غربا الأحياء القصديرية التي كانت خالية من أي نشاط يذكر، كالخدمات الإجتماعية العامة، و المصالح التي تجمعت في الشريط الممتد خلف ميناء الجزائر، و البعض الآخر في شارع الثامن من نوفمبر⁽²⁵⁾.

عاش الجزائريون داخل المدينة الأوروبية ظروفًا صعبة و همشوا و لم يشملهم أي مشروع اجتماعي ذلك أن التهيئة العمرانية بالمدينة وجدت لتوفر كل الشروط للأوروبيين الدخلاء عليها و هذا ليس غريب على الاحتلال الذي جاء بمشروعه الإستيطاني.

2- التفرقة الإثنية لأحياء المدينة:

كانت مدينة الجزائر تحتوي على أحياء للأوروبيين وأحياء للجزائريين وأحياء لليهود، ونظرا لذلك لم يكن من الغريب ملاحظة تفرقة أثنية. كانت المدينة الأوروبية هي قلب المدينة الحديثة حيث نجد المرافق والأحياء الراقية التي تعيش حيوية ونشاط وتعد مركز ثقل المدينة، أما المدينة التي كانت يسكنها الجزائريون أو بالأحرى الأحياء فلقد كانت تشكل حزاما وكأنه أجنحة لها، فمن شمال المدينة كانت القصبة العليا والسفلى وما تبقى من العمران التركي، ومن الجنوب كانت القصبة الصغيرة.

والملاحظ أن التفرقة التي كانت موجودة في مدينة الجزائر لم تكن تفرقة اثنية فقط بل كانت تفرقة اجتماعية، والظاهرتان مرتبطتان لا يمكن الفصل بينهما.

كانت الأحياء التي يسكنها الجزائريون تكاد تكون خالية من أي نشاط يذكر، على عكس الأحياء الأوروبية حيث الأنشطة المختلفة، فالذي ينظر إلى المدينة في حركتها ونشاطها يكتشف من الوهلة الأولى الاختلاف الواضح في مستوى المعيشة، فالعصرية كانت حكرا على الأحياء الأوروبية نفس الشيء بالنسبة للخدمات الاجتماعية العامة التي كان معظمها يوجد في الشريط الممتد خلف الميناء مثل مصالح البلدية والبريد المركزي وقصر العدالة والولاية والبعض منها في شارع الثامن من

نوفمبر حيث الخزينة العامة وهذا المجمع كان يمثل أهم مركز إداري للمدينة في حين احتفظت المصالح العسكرية بهياكلها في المدينة السفلى أي عند حي باب الوادي حيث توجد الثكنة العسكرية وقيادة الأركان. كما شمل القطاع الأوروبي المدارس والجامعة وغرفة التجارة والبنك والبورصة والثانوية ومصالح النقل والملاحة والتأمينات. أما الأحياء التي يسكنها الجزائريون فكانت تجمع بعض الأنشطة التجارية الصغيرة التي كانت في يد فئة قليلة، والمسافر القادم إلى المدينة يلاحظ من الوهلة الأولى الاختلاف في النسيج العمراني، حيث الكثافة السكانية في القصبة والشريط الساحلي المحاذي للبحر⁽²⁶⁾.

3- خصوصية السكن الأوروبي والجزائري:

يختلف السكن الأوروبي عن السكن الذي يعيش فيه الجزائريون من حيث الغرف التي تبدو ضيقة ومحدودة العدد، وفي غالب الأحيان كانت الغرفة هي المسكن الذي يأوي العائلة بأكملها، أما مساكن الأوروبيين فكانت واسعة ويتراوح عدد الغرف بين اثنين إلى ثلاثة أو أكثر. معظمها فخمة وتعكس مستوى المعيشة، كان متوسط أفراد العائلة الجزائرية أكثر من خمسة بينما لا يتعدى اثنين إلى ثلاثة عند الأوروبيين، وهذا يعني أن الأوروبيين يملكون ثلاث مرات عدد الغرف بالمقارنة مع الجزائريين وهو ما يفسر الذهاب والإياب داخل الأحياء الجزائرية ذات الأنهج الضيقة، حيث تمتلئ الشوارع بالأطفال و المقاهي بالرجال فرارا من ضيق المساكن التي لم تكن توفر حياة كريمة.

كان السكان الجزائريون يأوون إلى سكناتهم ليلا، تفتقر للإنارة وشبكة توزيع المياه و نقص المرافق. علما أن معظمها بني في السنوات الأولى من الاحتلال وقبل 1870 وتوجد في القصبة القديمة التي يسكنها ثلاثة أرباع الجزائريين⁽²⁷⁾.

أما العائلات الجزائرية فقد كانت تعيش في ضيق كبير وهذا معروف لان المدينة القديمة تعرضت لتغييرات وهدم وتوسيع للطرق وبناء الأحياء الأوروبية الجديدة، في الجهة السفلى منها، كل هذا قلّص من المساحة التي يسكنها الجزائريون، كان عددها يزيد لأنهم يستقبلون باستمرار أقارب لهم نازحين من خارج المدينة، حيث قدرت الكثافة السكانية بألف وخمسة مائة نسمة في الهكتار في عام 1881، ارتفعت إلى ألفين نسمة في الهكتار بعد نصف قرن⁽²⁸⁾.

هؤلاء النازحون كانوا يفدون إليها فرارا من القمع الإستعماري و بعد مصادرة أراضيهم و أثناء مواسم الزراعة الرديئة، نزوحهم كان بدون عودة وبأعداد كبيرة

خاصة في الفترة ما بين 1921 و1936.و هي الفترة التي بدأت تنتشر و تكثر فيها الأحياء القصديرية⁽²⁹⁾.

4- الأحياء القصديرية (مدن الصفيح):

1- تاريخها:

يغطي تاريخ الأحياء القصديرية بالجزائر أثناء الاحتلال فترة تزيد على ثلاثين سنة أو أكثر، إذ يعود تاريخ ظهورها بمدينة الجزائر إلى سنوات 1930/1926. كانت هذه الأحياء مجمعة في ثلاث مدن جزائرية كبيرة هي وهران، الجزائر وعنابة، هذه المدن كانت تملك موانئ ومراكز صناعية وتجارية ومالية أي مدن غنية بالنشاط والعمل جذبت نحوها سكانا جاؤوا من خارجها وساهمت في زيادة عددهم، كما استقطبت بطريقة عنيفة وسريعة أعدادا كبيرة من سكان الريف، الذين كانوا يزدون من سنة لأخرى.

الوثائق المختصة في دراسة هذه الظاهرة ألا وهي الأحياء القصديرية لا تعطينا إلا عموميات وفي أغلب الأحيان متناقضة ذلك أن إدارة الاحتلال لم تلتفت إلى هذه الظاهرة بصورة جدية إلا عندما استفحلت وكبرت وأصبحت تضايقهم وتهدد الأمن والنظافة العموميين.

كانت هذه الأحياء القصديرية موجودة في كل بلديات مدينة الجزائر وخارجها، زاد عددها ليصل عام 1938 إلى ثمانية عشر حي يسكنها أكثر من خمسة آلاف جزائري، منتشرة في المدينة فوق التلال و الوديان وعلى جانبي الجبال وبمحاذاتها تعيش ازدواجية معها، بعضها كان يجاور السكنات الفخمة وحتى الأحياء التي توجد فيها الفيلات.

باختصار كانت هذه الأحياء القصديرية تشكل ظاهرة غريبة، تعج بالسكان وتفتقر لأبسط شروط الحياة⁽³⁰⁾.

2- مرفولوجيتها:

كانت الأحياء القصديرية تكثر لأن الفقر وأزمة السكن كانتا تمانسان الجزائريين فإلى جانب النازحين الذين كانوا يفيدون إلى المدينة بحثا عن العمل والاستقرار كان البعض الآخر يسكنها لعجزهم عن دفع كراء الشقق في العمارات التي بناها الاحتلال والتي ترك معظمها للأوروبيين خاصة الفرنسيين.

كانت المساحة التي تبنى عليها الأكواخ تؤجر من مالكةا الذي عادة ما يكون البلدية أو أغنياء المدينة ، الذين يجنون أرباحا طائلة من العملية، هذا الكراء قد

يكون مرتفعاً لكنه أقل بكثير من ثمن كراء غرفة في القصبة لا تزيد مساحتها على ثمانية أمتار مربعة.

مهما يكن من أمر فليس هنالك فرق بين مساحة غرفة في حي قصديري أو غرفة في القصبة ففي كلتا الحالتين كان السكان يعيشون في ضيق كبير، فلو قسمنا مساحة الغرفة على عدد أفراد العائلة لتحصل كل فرد على متر مربع فقط⁽³¹⁾.

3- سكانها:

في حقيقة الأمر كان من الصعب معرفة عدد سكانها لأن هذه الأحياء لم تشملها عمليات الإحصاء الدقيقة ذلك أن هذه العمليات في حد ذاتها كانت صعبة. ولما كانت فيه إمكانية القيام بها فإن الإحصاء لم يكن يشمل إلا الأحياء القصديرية الكبرى التي كان المحتل لا يعرفها بالأكواخ بل يكتفي بتسميتها بالمجمعات أو الأحياء.

هذه الأكواخ كان يسكنها جزائريون فقط وتعتبر مدينة الجزائر، المدينة الوحيدة التي تحتوي على أقدم وأكبر مجمع قصديري رغم كثرتها، إلا أنها كانت عاجزة على استيعاب وتحمل الأعداد الكبيرة من النازحين نحوها، بداخلها ولد جيل جديد ومنها خرج سكان جدد صعب عليهم التأقلم مع المدينة ومدنيتها.

هؤلاء الجدد القادمون إلى المدينة من أحياء القصدير لا يمتنون بصلة للبرجوازية الحضرية ولا حتى لطبقة الحرفيين، جاؤوا إلى المدينة وجلبوا معهم عاداتهم وبنوا الأكواخ في كل المساحات المتوفرة حتى الصعبة المسالك، مساحات لم تلفت أنظار السلطات إليها.

هكذا بدأت هذه الأحياء تتوسع وتزداد في أطراف المدينة، توجد بداخلها أنشطة تجارية مختلفة فهناك دكاكين للبقالة والخضر والخبز وتوزيع الحليب ودكاكين لإصلاح الأحذية، و خياطين، و حلاقين، و بائعي الملابس القديمة. كما كان يوجد بها أكشاك ومقاهي تتحول في الليل إلى مراقد يأوي إليها بعض الأشخاص حتى المشبوهين منهم، و كتاتيب وبيوت قرآنية وأقسام للتعليم، لكن مع كل هذا كانت تفتقر للمرشات ودوريات المياه.

داخل هذه الأحياء يوجد لجان، كثيرا ما كانوا يترددون على مصالح البلدية لتقديم احتجاجات أو شكاوي، أو لإصلاح قنوات صرف المياه أو شق ممرات أو الإنارة وحتى بناء مستوصفات صحية.

سواء كانت هذه الأحياء، أحياء سكنية أو مراكز أو مجمعات فإنها كانت تحاصر المدينة من كل جهة أو بالأصح تحاصر المدينتين الأوروبية والجزائرية كانت محرومة من كل ما يبهر وجود مدينة من شغل ومرافق عامة⁽³²⁾.

كانت مدينة الجزائر تتطور، لكنها لم تطور معها سكان هذه الأحياء، بل تجاهلتهم وهمشتهم رغم أن الزيادة السكانية فيها كانت تفرض نفسها وتؤكد أن اختفاءها أمرا مستحيلا، و ضربا من ضروب الخيال.

خلاصة:

نستنتج من كل ما تقدم أن الإحتلال الفرنسي بعد أن نقض المعاهدة التي أمضاها مع الداي حسين، عبث بالمدينة بطريقة همجية وحشية جعلت سكانها يهجرونها رافضين العيش مع هذا الدخيل الغاشم، فخضعت بذلك مكرهه للتغيير، الذي ترك أثرا بليغا في نفسية سكانها الأصليين، و أكثر ما نحتاجه اليوم و ما يحتاجه المجتمع الجزائري الذي فقد الكثير من تراثه، خلال الحقبة الإستعمارية و كذا الإهمال المستمر لشواهد الحضارية منذ الإستقلال، هو عملية مسح منتظم يقوم به الباحثين و المنقبين، لحفظ و ترميم ما بقي من تراث، حتى لا يضيع من الخريطة الجغرافية و من الذاكرة الجماعية.

هوامش:

(1)ICHEBOUDENE (L): **histoire et capitale de destin national**, ed casbah, Alger, 1997 p 166.

(2)- BAROLI(Marc): **la vie quotidienne des français en algerie 18301914**, hachette, paris, 1967p16.

(3)- KADDACHE (M): **La vie Politique à Alger (1919 à 1939)**, sned , Alger 1970, p9.

(4)-JORDI (JJ) et planche (louis): **Alger 1860- 1939. Le modèle Ambiguë du triomphe colonial**, ed autrement, collection, memoiresn°55, Paris , 1999 p27 .

(5) - LESPES (R): **évolution des idées sue L'urbanisme algérois de 1830 à nos jours**, in, **revues chantiers**, mars 1933 ,p247

(6) ESQUER(G) : **Alger et sa ragion**, Paris édition arthrand; 1957, p102. — (7)- VENTURE(de paradis) : **Alger au XXIII siècle**, rééditée par Bous lama, tunis, 1985,pp35-36.

(8)- LESPES (R) **Alger, étude de géographie et d' Histoire urbainne**, Paris , Alcan, 1930, p205.

(9)-Bulletin municipal de la ville d'Alger séance du 12 Juin 1899 p 22.

(10)- Ibid, p31.

(11)- Ibid, p35.

(12) - DELUZ (JJ) : **L' Urbanismes et l'architecture d'Alger**, aperçu critique, Alger, ed Liège, 1988,p1.

(13)- DECLOITRES (R), REVERDY(J.C): **L'Algérie des bidonvilles** le tiers monde dans la cité , ed mouton ,Paris, 1961, p40.

- (14)- Ibid, p 45.
- (15)- LESPES (R): **étude de géographie.....**p26.
- (16)- ICHEBOUDENE (L):op,cit,p178.
- (17)- Ibid ,p176.
- (18)- DELUZ (JJ): op,cit,p 20.
- (19)- LEPES (R): **Alger capitale qui déborde hors son cadre et de son site naturel** , in revues chantiers, n°7 Juillet 1933 , p 337 .
- (20)- JORDI(JJ): op,cit, ,p 37.
- (21)- NOUGIER (PL) : « **la transformation de l'ancien quartier de la marine** » in revue chantiers n°14, 1954 p 28.
- (22)- ICHEBOUDENE (L):op, cit,p 165 .
- (23)- BENATIA(F): **L'appropriation de L'espace a Alger** , ed , SNED, Alger , 1978, p70 .
- (24)- DECLOITRES (R): op, cit, p 79.
- (25)- Ibid , p 53.
- (26)- Ibid , p 53.
- (27)- Ibid, pp 56-60.
- (28)- Ibid , p 83.
- (29)- Ibid , p 105 .
- (30)- Ibid , pp 106-107.
- عام 1934 أنظر : L.Vaillant لأول مرة من طرف bidonvilles استعملت عبارة
- BENATIA (F) : **Alger agrégat ou cité, Alger 1919-1979** , SNED1980 p 260
- (31)- Ibid , pp 108-109
- (32)- Ibid , pp 110-112 .